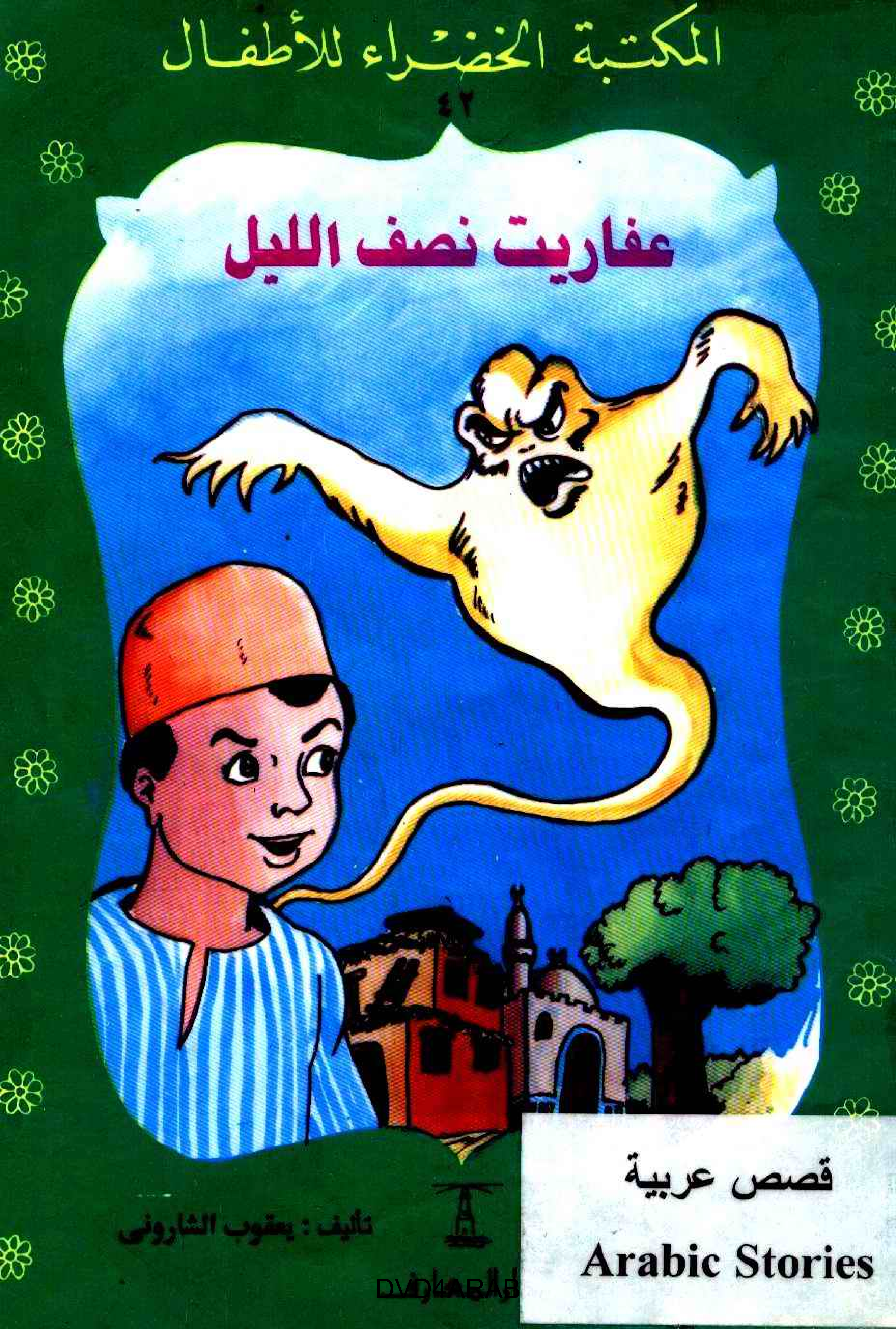

المكتبة الخضراء للأطفال
٤٢
عفاريت نصف الليل
تأليف : يعقوب الشاروني
قصص عربية
Arabic Stories
DVD4ARAB

المكتبة الخضراء للأطفال

٤٢

عفاريت نصف الليل

تأليف
يعقوب الشارونى



رسوم: عبد الرحمن بكر

الطبعة الثالثة



"فى ليلةٍ مُظلِمةٍ من ليالى الشتاءِ الماضى ، وبجوارِ منطقةِ المقابرِ، فى الطريقِ القادمِ من قريةِ "الشيخ فضل"، كانَ "عم صابر" النجارُ يسحبُ خلفَهُ حمارَهُ ، وقد ربطَهُ بحبلٍ أمسكَهُ بيدِهِ ، بعدَ أن وضعَ فوقَ ظهرِهِ حِمْلاً ثقيلاً من الخشبِ . وفجأةً سمعَ صوتَ شيءٍ صدمَ الحمارَ بعنفٍ ، مع صوتِ عظامٍ تتكسَّرُ.."

فى تلك اللحظةِ ، انطلقَ خفاشٌ أسودُ ، من بينِ فروعِ شجرةِ جميزٍ عتيقةٍ ، وطارَ فوقَ حلقةٍ من صبيانِ قريةِ شارونة ، وهم يجلسونَ فى ضوءِ القمرِ يستمعونَ إلى مسعود ، أكبرِ الأولادِ فى السنِّ والجسمِ ، يحكى لهم ما يتردَّدُ فى القريةِ من حكاياتٍ ، حولَ حوادثَ غريبةٍ تحدثُ ليلاً ، فى الطريقِ الذى يصلُ ما بينَ قريةِ شارونة وقريةِ الشيخِ فضل المجاورةِ لها.

وارتعشَ أصغرُ الأولادِ ، وانكمشَ داخلَ جلبابِهِ ، وهو يُصغِى إلى مسعود يُكمِلُ حكايتَهُ قائلاً: "وانفلتَ الحبلُ من يدِ عمِّ صابر النجار ، فالتفتَ خلفَهُ بسرعةٍ ، ليجدَ الحمارَ قد سقطَ مع حِملِهِ على الأرضِ ، مثلَ قطعةِ حجرٍ ثقيلةٍ..

ونهقَ الحمارُ في ألمٍ شديدٍ ، كأنه ابنُ آدمَ يصرخُ ويستغيثُ .. وتتابَعَ أنينُهُ ونهيقُهُ .. وتلفَّتَ عم صابر حولَهُ ، فلم يرَ في الظلامِ أحدًا أو شيئًا .. فمَنِ الذي ضربَ الحمارَ وأوقعَهُ بكلِّ هذه القسوةِ ؟!"

وبصوتٍ خافتٍ ، كأنه يُجيبُ عن تساؤلِ مسعود ، همسَ أحدُ الأولادِ قائلاً: "العفاريت!!"

لكنَّ "مسعود" لم يهتمَّ بتلك المُقاطَعةِ ، واستمرَّ في حكايتِهِ قائلاً: "وصاحَ العمُّ صابر النجارُ "بسم الله الرحمن الرحيم .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" .. وعندما تأكَّدَ من ابتعادِ العفاريتِ ، انحنى ليرى ما الذي حدثَ لحمارِهِ ، فاكتشفَ أن ساقَ الحمارِ قد أصابَتْها ضربةٌ عنيفةٌ حطَّمَتْها .. ولم تعدْ للحمارِ فائدةٌ بعدَ تلك الليلةِ."

هنا ارتفعَ صوتُ حسين ، وهو فتًى لا يتجاوزُ عمرُهُ الثانيةَ عشرةَ، قائلاً: "والدي يقولُ: الذي يخافُ من العفريتِ ، يصوِّرُ له خوفُهُ عشرينَ عفريتًا!!"

وكانَ الأولادُ يعرفونَ أن والدَ حسين ، كاتبَ الجمعيةِ الزراعيةِ ، قد درسَ عدةَ سنواتٍ بالأزهرِ الشريفِ في القاهرةِ ، وأنه يضحكُ كلما سمعَ مثلَ هذه الحكاياتِ ، ويقولُ لابنِهِ: "إياكَ أن تصدِّقَ كلَّ هذه المبالَغاتِ .. إنهم ناسٌ لا يستخدمون عقولَهم ، يُفزِعُهم أرنبٌ أو ثعلبٌ."

لكنَّ "مسعود" لم يرضَ عن عبارةِ حسين ، التي كادَتْ تُضيِّعُ تأثيرَ حكاياتِهِ على الأولادِ ، فاندفعَ يقولُ: "وهل تستطيعُ أن تُنكِرَ ظهورَ الشبحِ ، الذي كانَتْ قامتُهُ تقصرُ مرةً وتطولُ مرةً أخرى ، والذي اعترضَ طريقَ حارسِ ماكينةِ الريِّ وزوجتِهِ ، عندما تأخَّرا ذاتَ ليلةٍ في العودةِ إلى شارونة ، بعدَ زيارةٍ قاما بها لأقاربِهما في قريةِ الشيخِ فضل ؟! لقد طاردَهما الشبحُ وهما



يجريانِ بكلِّ قوتِهما ، وكادَ يُلقِى بهما فى طينِ الحقولِ ، لولا ظهورُ أضواءِ الفجرِ التى تخافُ منها الأشباحُ."

وارتفعَ صوتُ صبىٍّ آخرَ يقولُ: "وكلُّنا نعرفُ حكايةَ العفريتِ الأبيضِ ، الذى مزَّقَ ملابسَ عتريس العبيطِ وهو عائدٌ من الحقولِ ليلاً ، بعدَ أن قامَ بالمساعدةِ فى ريِّ أحدِ الحقولِ بالشَّادوفِ. ومن يومِها فَقَدَ عتريس العبيطُ هدوءَهُ ، وصارَ يضحكُ ويبكى كالمجانينِ ، ويرفضُ أن يخرجَ للعملِ فى أىِّ حقلٍ ، ليلاً أو نهارًا !!"

وحاولَ حسين ، ابنُ كاتبِ الجمعيةِ ، أن يقولَ شيئًا آخرَ ، يبدِّدُ به أثرَ تلك القصصِ التى تَبادَلَ أهلُ القريةِ روايتَها مراتٍ عديدةً ، حتى أصبحَ مُجرَّدُ التفكيرِ فى المرورِ بعدَ الغروبِ فى الطريقِ إلى قريةِ الشيخِ فضل ، خاصةً فى الجزءِ المجاورِ للمقابرِ ، نوعًا من الجنونِ ، لا يفكِّرُ فيه معظمُ أهلِ القريةِ، لكن "مسعود" لم يسمحْ لحسين أن يقولَ شيئًا ، إذ أسرعَ يقومُ ومعَهُ بقيةُ الأولادِ وهو يصيحُ ، كأنما يُريدُ أن يبثَّ مزيدًا من الرعبِ فى نفوسِ مَنْ هم أصغرُ منه سنًّا: "هيا إلى بيوتِنا بغيرِ إبطاءٍ ، قبل أن يختفِيَ القمرُ، ونتخبَّطَ فى العتمةِ ، فالعفاريتُ لا تُحِبُّ إلا الظلامَ!"

* * *

وفى صباحِ اليومِ التالى ، كانَتْ نفسُ مجموعةِ الأولادِ ، تعبرُ الجسرَ المُقامَ فوقَ الترعةِ المجاورةِ لمدرستِهم الابتدائيةِ ، وهم عائدون إلى القريةِ بعد انتهاءِ اليومِ الدراسيِّ. وفجأةً توقَّفَ مسعود ، وقالَ:

"هيا نذهبُ لقطفِ البرتقالِ!!"

وتصايحَ الباقون فى صَخَبٍ وحماسٍ ، وقد فهموا معنى العبارةِ ، ثم استداروا ناحيةَ حدائقِ "المعلم توفيق" .

لكن "حسين" ابنَ كاتبِ الجمعيةِ الزراعيةِ ، استمرَّ فى طريقِهِ، لا يهتمُّ بصخبِ الزملاءِ وصياحِهم ، فصاحَ به مسعود:

"إلى متى تظلُّ جبانًا هكذا يا حسين؟! تعالَ معنا ، ولا تخشَ شيئًا!"

وتوقَّفَ حسين ، واستدارَ غاضبًا ، وقالَ فى عنفٍ: "السرقةُ ليسَتْ شجاعةً!!"



لكن كلماتِهِ ضاعَتْ بين ضحكاتِ وسخريةِ الزملاءِ ، الذين صاحوا في صخبٍ: "الشجاعُ مَنْ جمعَ أكثرَ ، وجرى أسرعَ .. تعالَ معنا!!"

لكنهم لم ينتظروا استجابتَهُ لهم ، فقد استقرَّ في نفوسِهم أن "حسين" أجبنُ من أن يشاركَهم مغامراتِ سرقةِ حدائقِ الفاكهةِ!

أما حسين ، فواصلَ السيرَ إلى القريةِ وهو يمتلئُ غيظًا. كانَ يقولُ لنفسِه: "كيف يعتبرونَ السرقةَ شجاعةً ، وفي نفسِ الوقتِ يخافون من حكاياتِ العفاريتِ الوهميةِ ؟! كم أتمنَّى أن يأتِيَ اليومُ الذى أثبتُ لهم فيه كيف تكونُ الشجاعةُ الحقيقيةُ!!"





لكنهُ بالتأكيدِ لم يكنْ يعرفُ متى سيأتى ذلك اليومُ!!

* * *

فى نهايةِ نفسِ ذلك اليومِ ، ارتفعَ من بيتِ الحاجِّ سالم ، صاحبِ ماكينةِ الريِّ ، صراخٌ حادٌّ مُرتفِعٌ: "سرقونا .. اللصوصُ سرقونا.."

كان ذلك بعدَ غروبِ الشمسِ بساعتَيْنِ، وقد غمرَ الظلامُ الكثيفُ منازلَ القريةِ، لا تبدِّدُهُ إلا خيوطُ نورٍ ضئيلةٌ، تتسلَّلُ من أبوابِ البيوتِ، وتتراقصُ مع تراقُصِ شعلاتِ المسارجِ، ومصابيح "الجاز" البتروليةِ الخافتةِ الضوءِ، التى لم تكن القُرَى تعرفُ غيرَها قبل أن تُضيءَ الكهرباءُ قُرَى مصرَ.

وفى لحظاتٍ ، تجمَّعَ عددٌ كبيرٌ من أهلِ القريةِ داخلَ وخارجَ بيتِ الحاجِّ سالم صاحبِ ماكينةِ الريِّ ، يستطلعون الخبرَ.

صاحَتْ "تفيدة" زوجةُ



الحـــاجّ: "الأســـاورُ الذهبيـــةُ .. الخلخالُ الفضىُّ... الأقراطُ.. كلُّ الحُلِـيِّ الذهبيـــةِ التـــى نملكُـها.. سرقوها!!!"

وأخـــذَتْ نفيـــدة تصـــرخُ وتبكى، وتقولُ لِمَنْ تَجمَّعوا حولها: "لقد غادرْتُ البيـتَ لزيارةِ جارتى بمناسبةِ عودتِها من الحجِّ، بعد أن أغلقْتُ بابَ دولابِ الملابسِ وبـابَ الدار الخـارجىّ. وعندمـا عـدْتُ، وجدْتُ البابَ الخارجىّ مُغلَقًا كما تركْتُه ، لكنى وجدْتُ بابَ الدولابِ مفتوحًا ، والحلِىَّ الغالية قد اختفَتْ كلُّها منه."

ثم عادَتْ تصرخُ: "لا تقولـوا العفاريتَ .. لقد قفزَ اللصُّ من فوقِ أسطحِ البيـوتِ المجاورةِ ، ودخلَ من الفناءِ الداخلىِّ."

صاحَ حلاَّقُ القريةِ "الأسطى شلبى" : شىءٌ باردٌ جـدًّا. هـذه ثالثُ سرقةٍ فى شهرٍ واحدٍ!! لو وقع اللص تحتَ الموسى الذى أحلقُ به، لكانَتْ نهايتُهُ!!"

وقالَ البقّـالُ "المُقدَّس برسـوم" : "مـن المؤكّـدِ أن اللـصَّ مـن أهـلِ

البلدِ.. إنه يعرفُ أصحابَ الحليِّ الذهبيةِ ، ويعرفُ أين يُخفونَها!! لو أمسكْتُه ، لقطَّعْتُه وبعْتُه في قراطيسَ!!"

وتبادَلَ الواقفونَ نظراتِ القلقِ والحيرةِ ، كانَتِ القريةُ تنعمُ بالأمانِ: الأبوابُ دائمًا مفتوحةٌ ، والنوافذُ لا يُغلِقُها أحدٌ. وعندما تكرَّرَتِ السرقاتُ ، مع حكايات العفاريتِ ، أغلقوا النوافذَ والأبوابَ ، لكن ها هي السرقاتُ تستمرُّ!!

قال الحاجُّ سالم ، صاحبُ ماكينةِ الريِّ ، الذي سرقَ اللصوصُ ذهبَ زوجتِهِ:

"لن نستطيعَ النومَ في أمانٍ بعدَ اليومِ ، إلا إذا عرَفْنا السارقَ وقبَضْنا عليه .. هيا نُخبرُ العمدةَ."

وقبل أن يتحرَّكَ صاحبُ ماكينةِ الريِّ ، والحلاقُ وبرسوم البقالُ وتفيدة صاحبةُ الذهبِ المسروقِ ، وبقيةُ المُتجمِّعينَ ، اندفعَ وسطَهم حسين، ابنُ كاتبِ الجمعيةِ الزراعيةِ الذي سبقَ أن تعرَّفْنا عليه ، وصاحَ في لهفةٍ وانزعاجٍ: "أين خالتي تفيدة ؟!"

وتلقَّاه برسوم البقالُ ، وسألَه وهو يحاولُ تهدئتَهُ: "ما لَكَ يا حسين؟ هل حدثَ شيءٌ في منزلِكم؟"

أجابَ حسين مُنفعِلاً: "سافرَ أبي إلى مركزِ مغاغة ، لمُراجَعةِ حساباتِ الجمعيةِ ، وسيبيتُ هناك."

ثم خفضَ صوتَهُ ، وهو يقولُ بلهجةٍ تحملُ معنًى خطيرًا: "والدتي مريضةٌ جدًّا . . ."

وسمعَتْهُ زوجةُ البقالِ ، فاقتربَتْ منه ، وسألَتْ: "والدتُكَ تنتظرُ مولودًا .. هل فاجأتْها الولادةُ؟"

أجابَ حسين في اندفاعٍ وهو خائفٌ من ضياعِ الوقتِ: "الستُّ المُولِّدةُ تساعدُ والدتي منذُ العصرِ ، لكنها تطلبُ معونةَ خالتي تفيدة ، لأن حالةَ أمِّي تسوءُ."

وأحسَّتْ زوجةُ برسوم البقالِ بالخطرِ الذي يهدِّدُ حياةَ والدةِ حسين ، فهمسَتْ بكلماتٍ إلى سيِّدتَيْنِ بجوارِها ، ثم قالَتْ لزوجِها: "سنذهبُ نحن لنرى والدةَ حسين."

* * *

وفي منزلِ والدِ حسين كاتبِ الجمعيةِ ، وقفَتِ السيداتُ حولَ فراشِ "أم حسين" ، تتطلَّعُ كلٌّ منهن إلى الأخرى في حيرةٍ وقلقٍ. كانَ واضحًا من صرخاتِ الأمِّ أن الإرهاقَ قد أنهكَها ، وأنها لن تستطيعَ مواصلةَ تحمُّلِ آلامِ الوضعِ الشديدةِ.

قالَتِ المُولِّدةُ ، التي كثيرًا ما ساعدَتْ نساءَ القريةِ أثناءَ حالاتِ الولادةِ: "الحالةُ غيرُ مُطَمْئِنَةٍ .. أريدُ مَنْ يساعدُني .. اذهبْ يا حسين .. أحضرِ الطبيبَ."

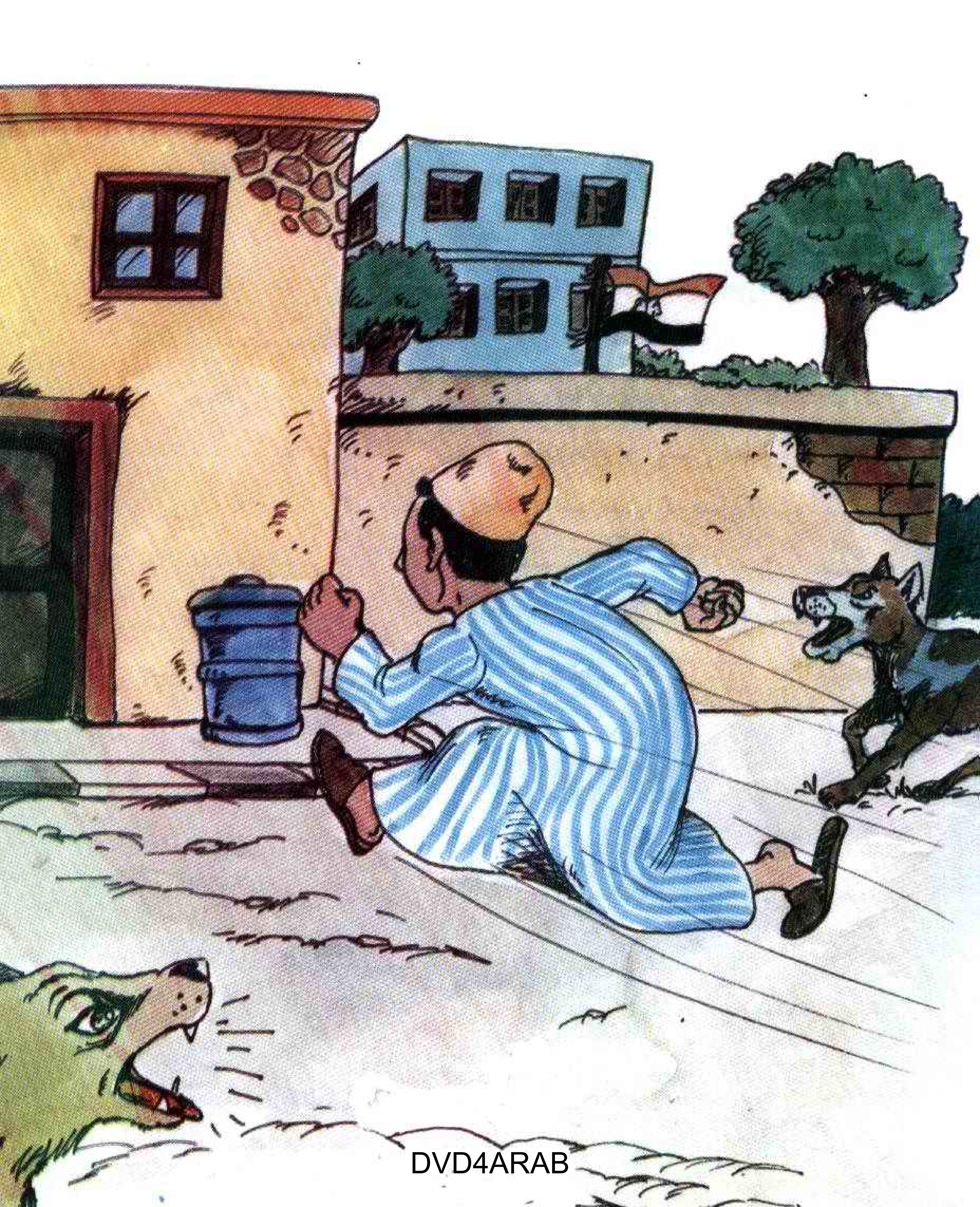
كانَتِ الوحدةُ المجمعةُ التي بها المدرسةُ وعيادةُ الطبيبِ ومسكنُهُ ، عندَ أطرافِ القريةِ . وكانَتْ حكاياتُ العفاريتِ قد منعَتِ الأطفالَ من الذهابِ إلى الوحدةِ ليلاً ، لكن "حسين" خرجَ بسرعةٍ كالسهمِ ، وسطَ الظلامِ ، مُندفِعًا إلى الوحدةِ المُجمَّعةِ ، حيث توجدُ العيادةُ الطبيةُ ، وفوقَها مسكنُ الطبيبِ.

كانَتِ الساعةُ تقتربُ من العاشرةِ ليلاً ، ومع ذلك انطلقَ حسين يجري حتى وصلَ إلى العيادةِ ، فشاهدَ نورًا يُشِعُّ من خلفِ زجاجِ نافذتِها، فأحسَّ بالراحةِ .. لابد أن الطبيبَ موجودٌ ، ولم يذهبْ تلك الليلةَ إلى قريةِ الشيخِ

فضل المجاورةِ ، حيثُ يوجدُ بيتُهُ.

وفى عنفٍ ، قرعَ حسين البابَ ، فلم يُجِبْهُ أحدٌ ، وعاودَ الطرقَ بشدةٍ.

فسمعَ صوتًا يُخالِطُهُ النُّعاسُ يُقولُ: "مَنْ هناكَ؟"



وعرفَ حسين صاحبَ الصوتِ.. إنه المُمرِّضُ "عمّ ربيع".

قالَ حسينِ لنفسِهِ: عم ربيع المُمرِّضُ لا يحرصُ عادةً على البقاءِ في العيادةِ ، إلا إذا كانَ الدكتور موجودًا ، فصاحَ: "اصعدْ إلى الدكتور يا عمّ ربيع.. والدتي مريضةٌ جدًّا. إنها تلدُ وحالتُها صعبةٌ . لابد أن يراها الطبيبُ في الحالِ."

وفتحَ الممرِّضُ بابَ العيادةِ ، وأطلَّ من فتحةِ البابِ ، وقالَ وهو لا يزالُ يقاومُ النُّعاسَ:

"كلُّ نساءِ البلدِ يلدْنَ من غيرِ حاجةٍ إلى الدكتور! لماذا تحتاجُ والدتُكَ أنتَ إلى طبيبٍ ؟!"

وخرجَ المُمرِّضُ من البابِ ، ووقفَ أمامَ حسين ، ثم دعكَ عينَيْهِ وقالَ: "الدكتور غيرُ موجودٍ . سيبيتُ الليلةَ في بيتِهِ بقريةِ الشيخِ فضل. هناكَ سيدةٌ أخرى تلدُ تحتاجُ إلى عنايتِهِ ، ذهبَ إليها بسيارتِهِ قبلَ الغروبِ. يمكنُ لوالدتِكَ أن تنتظرَ حتَّى الصباحِ .. لا تقلقْ."

لكن "حسين" كان شديدَ القلقِ .. كانَ يُدرِكُ أن حالةَ أمِّهِ لن تنتظرَ حتى الصباحِ ، فصاحَ في اندفاعٍ: "أنا خائفٌ يا عمّ ربيع .. حالةُ والدتي خطيرةٌ."

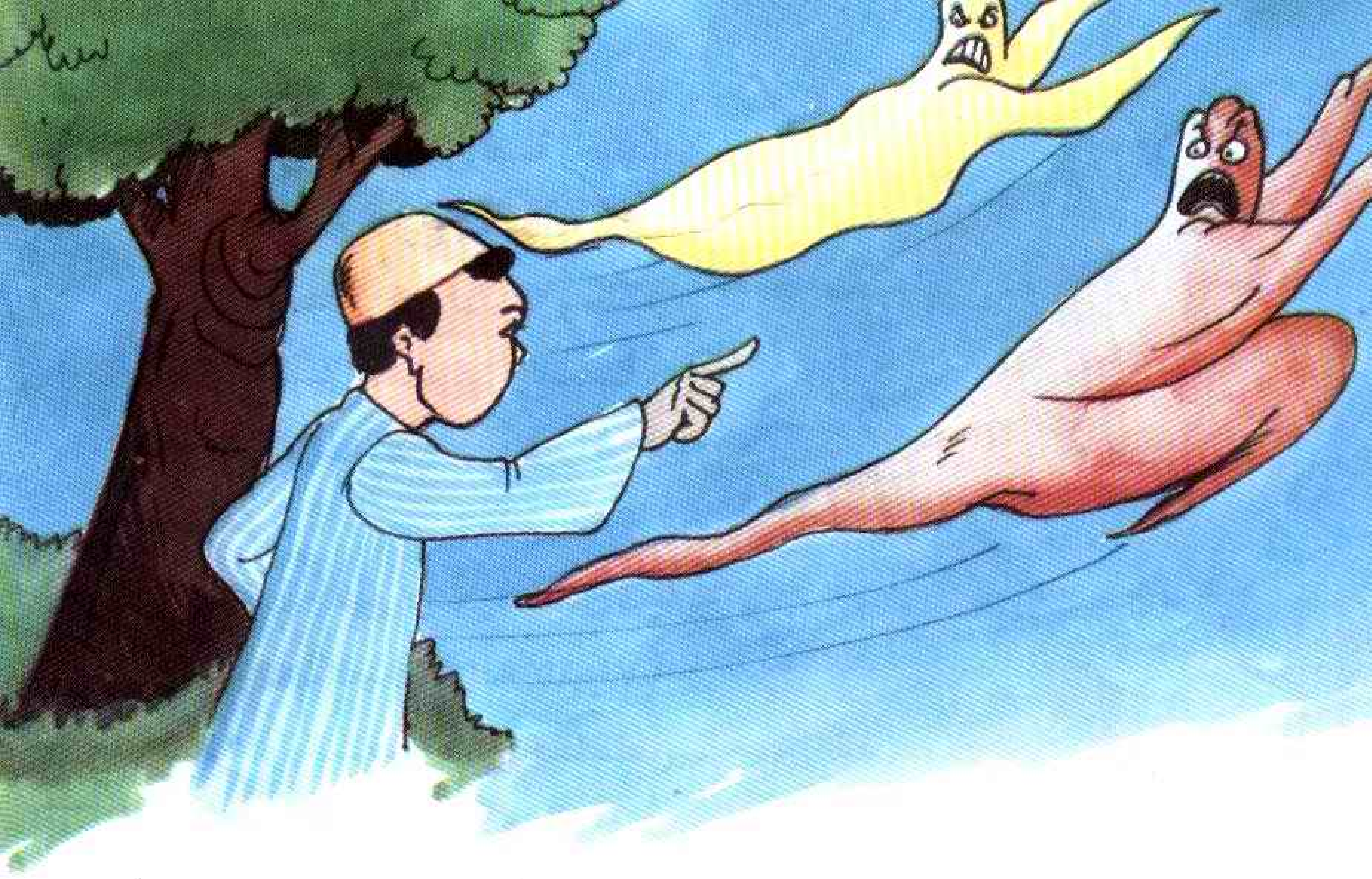
وغلبَ النعاسُ عم "ربيع" ثانيةً ، فانسحبَ إلى داخلِ العيادةِ ، وهو يقولُ في نفادِ صبرٍ: "الليلةُ شديدةُ الظلمةِ ، والطريقُ إلى الشيخِ فضل ملآنُ بالمقابرِ والعفاريتِ! اذهبْ ونمْ يا ابني ، ربُّنا يهديكَ .. واتركْني في حالي ، فالعمرُ غالٍ !!"

* * *



ووجدَ حسين نفسهُ وحيدًا فى الظلمةِ خارجَ بابِ العيادةِ ، وقد نفذَتْ إلى أذنَيْهِ وعقلِهِ وأعصابِهِ كلماتُ: "المقابر والعفاريت!" وأحسَّ بأطرافِهِ ترتعشُ.

وقفَ حسين لا تتحرَّكُ قدماه من أمامِ بابِ العيادةِ .. إنه كثيرًا ما تَظاهَرَ بالسخريةِ من "حكاياتِ العفاريتِ" ، هو و "وجيه" أعزُّ أصدقائِهِ ، وهما يردِّدانِ قولَ والدِ حسين: "إن أسوأ العفاريتِ هو ابنُ آدمَ."



وأخيرًا استطاعَ حسين أن يتماسكَ ، وقالَ يشجِّعُ نفسَهُ: "الشجاعةُ الحقيقيةُ أن أذهبَ لإحضار الطبيبِ الآنَ من قريةِ الشيخِ فضل ، لا أن أشاركَ في سرقةِ حدائقِ عمٍّ توفيق. وإذا ظهرَ لي العفريتُ الأبيضُ أو الأسودُ ، أتلو آيةَ الكرسي ، فيهربُ من غير لكاعةٍ!!"

كانَ اتِّهامُ الأصدقاءِ له بالجبنِ يضايقُهُ ويطاردُهُ ، وسيطرَتْ عليه فكرةُ إثباتِ شجاعتِهِ ورجولتِهِ. وأخيرًا همسَ لنفسِهِ: " أعودُ أولاً إلى البيتِ، فقد تكونُ حالةُ والدتي قد تحسَّنَتْ."

واتَّجهَ بسرعةٍ نحوَ البيتِ. وعندَ البابِ ، كانَتِ المُولِّدةُ تقفُ ، والقلقُ يبدو واضحًا على وجهِها. وما إن رأتْ "حسين" يقتربُ حتى صاحَتْ به: "أين الدكتور ؟! لماذا لم يحضُرْ معَكَ ؟! "

وبصوتٍ يملؤُهُ الإحساسُ بخطورةِ الموقفِ ، قالَ حسين: "الدكتور في قريةِ الشيخِ فضل .. سيبيتُ هناكَ الليلةَ."

وفوجئَ الفتى بالمُولِّدةِ تلطمُ خدَّها بكفِّها ، وتقولُ فى جزعٍ: "يا للمصيبةِ!" وفى نفسِ اللحظةِ ، خرجَتْ زوجةُ المُقدِّسِ برسوم البقالِ من البيتِ ، وصاحَتْ فى المولِّدةِ: "ستموتُ أمُّ حسين.. لن تتحمَّلَ هذه الآلامَ حتَّى الصباحِ !"

وزالَ تردُّدُ حسين ، واشتعلَ ذهنُهُ يفكِّرُ فيما سيحتاجُهُ خلالَ ذلك الطريقِ المُظلِمِ المُجاورِ للمقابرِ ، المُتَّجِهِ إلى الشيخِ فضل . فدخلَ الدارَ ، وتَناوَلَ عصاً ، ووضعَ فى جيبِهِ علبةَ ثقابٍ ، وأوراقًا من صحيفةٍ قديمةٍ ، فقد سمعَ أن العفاريتَ تخافُ من النور والنار .



ثم اندفعَ يجرى.

وفى الطريقِ ، تذكّرَ حسين صديقَهُ "وجيه" ، الذى يكبرُهُ بعامَيْنِ ، وكان يكررُ هو أيضًا قولَ والدِهِ شيخِ البلدِ ، إن هناكَ شيئًا غيرَ عادِيٍّ فى الطريقِ المُمتدِّ من قريةِ شارونة إلى قريةِ الشيخِ فضل .. شيئًا يُسمِّيهِ أهلُ القريةِ "عفاريت" ، لكن "حتَّى العفاريتُ تخافُ من الشجعانِ !!" كما كانَ يؤكِّدُ والدُ وجيه.

وهمسَ حسين لنفسِهِ:

"لماذا لا أصحبُ معى صديقى "وجيه"، فنواجهُ معًا ما قد يحدثُ من هذا الشيءِ غيرِ العاديِّ فى الطريقِ ؟"

وبسرعةٍ ، اتَّجهَ حسين إلى بيتِ صديقِهِ.

* * *

ودهشَ حسين عندما قالَتْ والدةُ وجيه إنه غيرُ موجودٍ بالدار ، فلم يكنْ وجيه مُعتادًا أن يتأخَّرَ إلى ذلك الوقتِ من الليلِ ، لكنِ الأمَّ لم تلبثْ أن قالَتْ: "لقد ذهبَ إلى بيتِ العمدةِ .. البلدُ كلُّها هناك."

وفى الحالِ اندفعَ حسين إلى دُوَّارِ العمدةِ ، فوجدَ نورَ "الكلوب" يُشِعُّ من نافذةِ "المَضْيَفَةِ" الواسعةِ ، والعمدةُ قد جمعَ الخُفَراءَ من حولِهِ ، وراحَ يستمعُ ، للمرةِ الرابعةِ أو الخامسةِ ، إلى قصةِ السرقةِ التى حدثَتْ فى بيتِ الحاجِّ ، صاحبِ ماكينةِ الريِّ.

وعثرَ حسين على صديقِهِ "وجيه" ، يقفُ مع مجموعةٍ من الأصدقاءِ فى أحدِ أركانِ "المَضْيَفَةِ". فأسرعَ وأمسكَ بيدِ وجيه ، وسحبَهُ خارجَ المضيفةِ وهو يقولُ: "أريدُكَ فى أمرٍ مُهِمٍّ .. أمرٍ خطيرٍ وعاجل."





وخرجَ وجيه مع حسين ، يصحبُهما عددٌ من زملائِهما ، التفتَ إليهم وجيه وقالَ: "ما دامَ الخُفَراءُ لا يستطيعون أن يقوموا بواجبهم فى حراسةِ أهلِنا ، فيجبُ أن نقومَ نحن بتنظيمِ الحراسةِ حولَ بيوتِنا."

ونظرَ إليه مسعود ، أكبرُ الزُّملاءِ سنًّا وجسمًا ، وقالَ فى سخريةٍ: "رأسُكَ ملآنُ دائمًا باقتراحاتٍ أكبرَ منك يا وجيه!"

ولم يتركْ حسين لوجيه وقتًا يردُّ فيه على مسعود ، الذى كانَ يظنُّ نفسَهُ شجاعًا بسببِ قيادتِهِ بقيةَ الزُّملاءِ فى مغامراتِ سرقةِ حدائقِ الفاكهةِ، بل أمسكَ بيدِ وجيه ، وأخذَ يجذبُهُ بعيدًا عن الزُّملاءِ ، فصاحَ به وجيه: "لماذا تشدُّنى هكذا يا حسين؟! ماذا حدثَ لك ؟!"

قالَ حسين: "لابد أن أذهبَ الآنَ إلى قريةِ الشيخِ فضل .. هيَّا معى."

والتفتَ وجيه إلى حسين ، وحملقَ فى وجههِ بدهشةٍ ، وصمتَ لحظةً ، ثم قالَ فى استنكار: "قريةُ الشيخِ فضل ؟! الآنَ؟!"

قالَ حسين: "والدتى مريضةٌ جدًا .. حالتُها خَطِيرةٌ .. لابد من استدعاءِ الدكتور من هناك. لا يُمكِنُ الانتظارُ حتى الصباحِ. والدى يبيتُ فى مغاغة ، وستتعرَّضُ حياةُ والدتى للخطرِ إذا تأخَّرْنا."

وتَردَّدَ وجيه لحظةً ، وقد تذكَّرَ هو أيضًا حكاياتِ العفاريتِ ، لكنه لم يلبثْ أن التفتَ إلى أحدِ الزُّمَلاءِ ، وقالَ له وهو يحاولُ أن يُخفِيَ قلقَهُ: "اذهبْ وأخبرْ والدى أننى مع حسين. والدتُهُ مريضةٌ ، وسنذهبُ معًا للبحثِ عن الطبيبِ."

وحرص ألا يذكرْ شيئًا عن الذهابِ إلى قريةِ الشيخِ فضل ،التى تعتقدُ القريةُ كلُّها ، أن العفاريتَ تقطعُ ليلاً الطريق المُمتدَّ إليها ، حتى لا يُثيرَ قلقَ والدَيْهِ.

* * *

تركَ الصديقانِ آخرَ أضواءِ القريةِ خلفهما ، وهما يمشيانِ فوقَ الطريقِ الترابِيِّ الضيقِ المُتَّجهِ إلى الشيخِ فضل ، وقد امتدَّتْ إلى يمينِهما زراعاتُ الذرةِ العاليةِ ، وانسابَتْ إلى يسارهما الترعةُ التى تروى بمياهِها المنطقةَ كلَّها.

وحدَّقَ الصديقان ببصرِهما ، فلم يتبيَّنا من معالمِ الطريقِ شيئًا . كانَ الظلامُ شديدًا ، فبدأ كلٌّ منهما يُبطِّئُ من خطواتِهِ ، كأنه يخشى من مواجهةِ المجهولِ فى ذلك الليلِ الأسودِ.

سأل وجيه صاحبَهُ فى تردُّد: "ما لك؟!"



قالَ حسين وهو يحاولُ السيطرةَ على نفسِهِ: "لا شيءَ .. أمشي ببطءٍ لكي لا أتعثَّرَ في حفرةٍ ، أو في بعضِ مُخلَّفاتِ المواشي."

وأضافَ بعدَ لحظةٍ ، كأنما يبثُّ الشجاعةَ في نفسِهِ:

"لو عرفَ والدي أن والدتي ستلدُ الليلةَ ، لما ذهبَ إلى مغاغة ، وبيننا وبينَها النيلُ ، ولا توجدُ معديةٌ أثناءَ الليلِ. لابد أن نصلَ إلى الطبيبِ بسرعةٍ .. يُمكِنُنا أن نكونَ في قرية الشيخِ فضل خلالَ ساعةٍ."

أجابَ وجيه: "لن نستطيعَ السيرَ بسرعةٍ في هذا الظلامِ."

وصمتَ لحظةً ، ثم أضافَ: "لكنْ عندَما نصلُ ، سيجيءُ معنا الدكتور بسيارتِهِ."

وتعثَّرَتْ قدمُ وجيه في مُخلَّفاتِ بعضِ المواشي ، وكادَ يقعُ ، فتوقَّفَ، وقد شعرَ بالخوفِ ، وتلفَّتَ حولَهُ ، وأضافَ:

"لسْتُ أعرفُ كيفَ يستطيعُ الدكتور أن يسيرَ بسيارتِهِ فوقَ هذا الطريقِ؟! إنه طريقٌ ضيِّقٌ ، كلُّهُ ترابٌ ، والمواشي تتزاحمُ فيه طولَ النهار."

قالَ حسين ، وهو يشجِّعُ صديقَهُ على مواصلةِ السيرِ: "مهما يكُنْ بطءُ سيارتِهِ فإنها أسرعُ من أقدامِنا !! وفي الليلِ ، لن تزاحمَها المواشي."

* * *

وأخذَ الهواءُ يدفعُ أعوادَ الذرةِ الطويلةَ على يمينِ الطريقِ ، فتتمايلُ وتصدرُ عن أوراقِها وشْوَشَةٌ خافتةٌ . كانَتِ الوشوشةُ ترتفعُ أحيانًا ، فيرتجفُ معها قلبا الصديقَيْنِ ، ثم يغتصبانِ الضحكَ ، لخوفِهما من أصواتٍ يسمعانِها طوالَ النهار ، فلا تُثيرُ شيئًا من اهتمامِهما.

وفجأةً صرخَ وجيه ، وقفزَ إلى الوراءِ قفزةً عاليةً!

وسألَهُ حسين وقد فزعَ هو الآخرُ:

"ماذا حدثَ يا وجيه؟!"

قالَ وجيه:

"ضربَني شيءٌ في ساقي!"

سألَ حسين في قلقٍ حقيقِيٍّ:

"هل أصابَكَ أذًى؟"

وانحنَى وجيه يتحسَّسُ ساقَهُ ، فلمسَتْ يدُهُ شيئًا كانَ يقفزُ بين رجلَيْهِ.

وكانَ يفكِّرُ في حقيقةِ ما حدثَ وهو يقولُ: "لم يحدثْ شيءٌ!"

ثمَّ أضافَ بعدَ لحظةٍ:

"أظنُّ أن ضفدعةً ارتطمَتْ بساقي .. لقد جعلَتْنا الحكاياتُ نخافُ من كلِّ شيءٍ."



قالَ حسين في ارتياحٍ:

"أفزعْتَني ... لقد تذكَّرْتُ الساقَ المكسورةَ لحمار نجار القريةِ!"

قالَ وجيه: "وتذكَّرْتُها أنا أيضًا."

قالَ حسين: "آه لو رآنا حمارُ نجار القريةِ .. لنهقَ كثيرًا لكي نرجعَ!!"

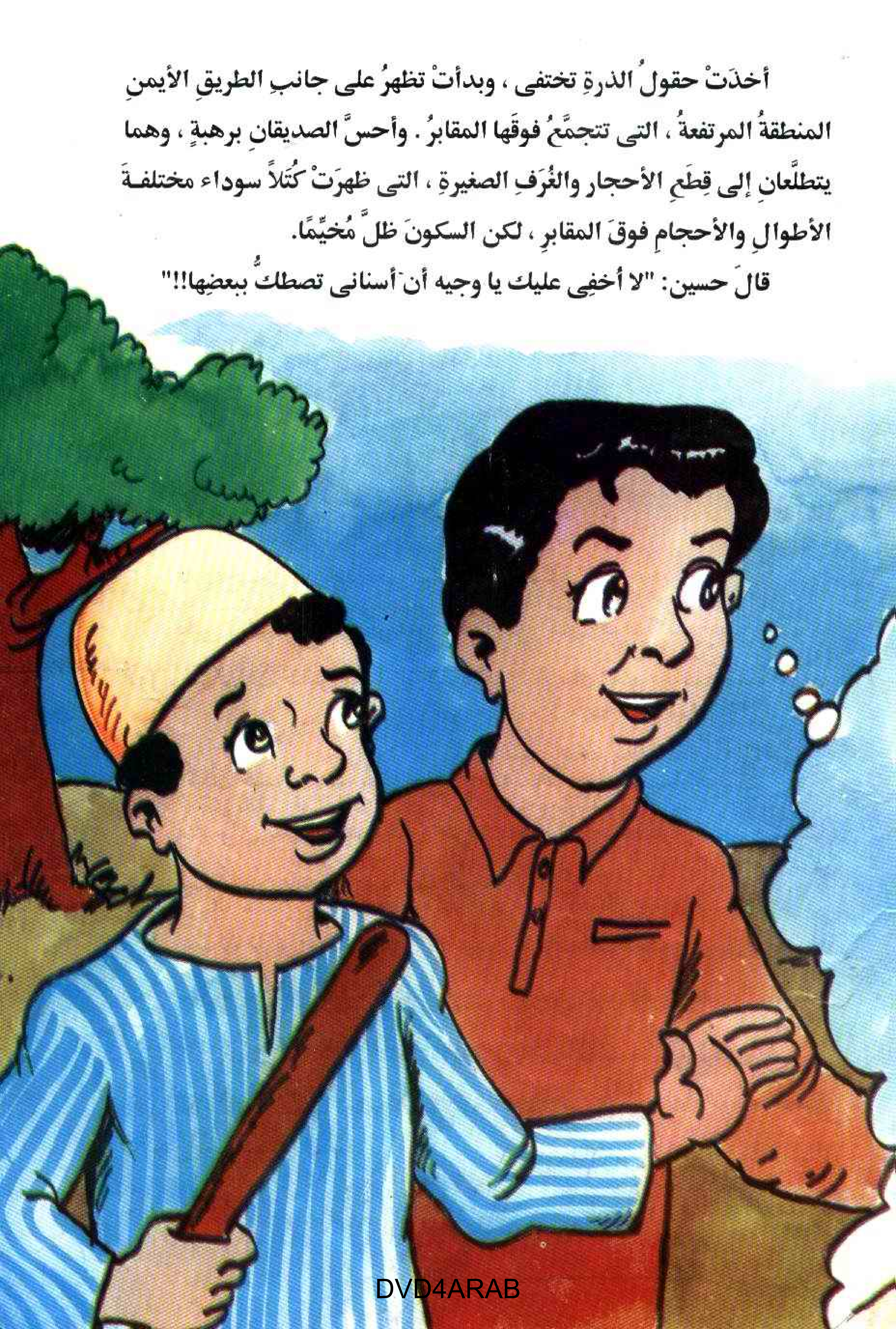
وعادَ الصديقانِ يضحكانِ ضحكًا يخالطهُ القلقُ ، وواصلا السيرَ.

* * *



أخذَتْ حقولُ الذرةِ تختفى ، وبدأتْ تظهرُ على جانبِ الطريقِ الأيمنِ المنطقةُ المرتفعةُ ، التى تتجمَّعُ فوقَها المقابرُ . وأحسَّ الصديقانِ برهبةٍ ، وهما يتطلَّعانِ إلى قِطَعِ الأحجار والغُرَفِ الصغيرةِ ، التى ظهرَتْ كُتَلاً سوداء مختلفةَ الأطوالِ والأحجامِ فوقَ المقابرِ ، لكن السكونَ ظلَّ مُخيِّمًا.

قالَ حسين: "لا أخفِى عليك يا وجيه أنَ أسنانى تصطكُّ ببعضِها!!"



أجابَهُ وجيه: "لسْتَ بحاجـة إلى أن تخفِىَ عنِّى ذلك.. إننـى أستمتعْ بالموسيقى التى تُصدرُها أسنانُكَ ، وأسنانى أيضًا!!"

وحاولَ حسين أن يتذكَّرَ أغنيةً يُغنِّيها ، لينسى حكاياتِ العفاريتِ ، ويبدِّدَ بها الصمتَ ورهبةَ الظلامِ. وقبلَ أن يفتحَ فمَـهُ بكلمـةٍ ، تناهَى إلى سمعِ الصبيَّيْنِ صوتُ عواءٍ!! وتوقَّفَ وجيه وهو يقولُ فى صوتٍ تشوبُهُ رنَّةُ خوفٍ:

"هذا عواءُ ذئبٍ!! لم يبقَ إلاَّ هذا!!!"

نَسِيَ حسين كلَّ ما يتعلَّقُ بالأغنيـةِ ، ومدَّ يـدَهُ ، وأمسكَ ذراعَ صديقِهِ ، يشجِّعُهُ ليُواصِلَ السيرَ وهو يقولُ:

"العُواءُ بعيدٌ جدًا .. بيننا وبينَهُ أكثرُ من ساعةٍ."

قالَ وجيه: "الذئابُ تأتى لتشربَ من الترعةِ."

وفى تلكَ اللحظةِ ، ارتفَعَ عُواءٌ آخرُ ، كانَ أقربَ كثيـرًا مـن العُـواءِ الأولِ. هنا توقَّفَ حسين أيضًا ، وأخذَ يُصغِي .. وعـادَ العُواءُ يرتفعُ وقد ازدادَ قربًا!!

وشدَّدَ حسين قبضتَهُ على ذراعِ وجيه ، وقد جمعَ بينهما الصمتُ.

وبغيرِ أن ينطـقَ الصديقـانِ حرفًـا واحـدًا ، أخـذا يتراجعـانِ ، كأنمـا تراجعُهما سيُبعِدُهما عن الحيواناتِ الشَّرِسَةِ!!

عندئذٍ تذكَّرَ حسـين الـورقَ وأعـوادَ الثقـابِ التى معه ، فتمـالكَ نفسَـهُ ، وأخرجَـها مـن جيبِـهِ ، وطـوى قطعـةَ ورقٍ ، وأطبـقَ يـدَهُ عليـها حتـى أصبحَـتْ كالشمعةِ ، ثم أشعلَها ، فأضاءتِ الطريقَ حولَهما.

وتوقَّفَ عواءُ الذئابِ ، بـل سمـعَ الصديقـانِ صوتًـا كأنمـا الذئـابُ تُسـرِعُ لتختفىَ بين المقابرِ المتناثرةِ.



قالَ حسين: "الحيواناتُ تخافُ النارَ ، والعفاريتُ أيضًا، لذلك أحْضَرْتُ معى الورقَ والكبريتَ."

هنا همسَ وجيه فى فزعٍ:

"لنرجعْ .. الذئابُ تقطعُ علينا الطريقَ."

لكن "حسين" لم يشاركْ وجيه فزعَهُ ، وقالَ مُتشكّكًا ، وقد تَذكَّرَ حالَ أمِّهِ:

"غريبٌ أن تأتِيَ الذئابُ مُبكِّرةً هكذا . والدى يقولُ إنها لا تأتى لتشربَ إلا قُرْبَ الفجرِ!!"

ثم صمتَ لحظةً يفكِّرُ ، فسألَهُ وجيه: "لماذا سَكَتَّ؟!"

قالَ حسين: "تَذكَّرْتُ أيضًا أن الذئابَ ، عندما تنزلُ من الجبلِ ، لا تعبرُ الترعةَ أبدًا إلى هذا الجانبِ الأيمنِ الذى نسيرُ عليه ، فكيفَ سمِعْنا صوتَها ، كأنها تختفى من النار بينَ المقابرِ؟!"

وانطفأتِ الورقةُ المُشتعِلةُ ، فسمعَ حسين شيئًا آخرَ. وأرهفَ سمعَهُ، ثم سألَ "وجيه": "هل سمعْتَ؟!"

أجابَ وجيه: "كلا .. لم أسمع شيئًا .. ماذا سمعْتَ أنتَ؟"

همسَ حسين: "شيئًا يُشبِهُ الضحكَ ..!"

واندفعَ وجيه يقولُ في فزعٍ: "الضحكَ؟! تقولُ الضحكَ؟! هيا نرجعْ.. لنرجِع قبلَ أن يبتلَّ سروالي!!"

قالَ حسين: "لماذا تَضاعَفَ فزعُكَ بهذا الشكلِ؟!"

أجابَ وجيه: "صوتُ الضبعِ يُشبهُ الضحكَ .. هناكَ ضبعٌ في طريقِنا!"

وفي ثقةٍ قال حسين: "لا .. لسْتُ أعتقدُ أنها ضحكةُ ضبعٍ! "ثم صمَتَ لحظةً ، وأضافَ بصوتٍ هامسٍ:

"هناكَ شيءٌ غريبٌ يحدثُ حولَنا ... أظنُّ أن هناكَ شخصًا يحاولُ تقليدَ صوتِ الضبعِ لكي نخافَ!!"

فتَساءَلَ وجيه: "ما الذي يدورُ في خاطرِكَ؟"

أجابَ حسين في همسٍ خافتٍ:

"لعلَّ هناكَ مَنْ يُريدُنا أن نبتعدَ عن هذا الطريقِ . هيا نتظاهرُ بأننا سنعودُ إلى شارونة."

تَساءَلَ وجيه في دهشةٍ: "نتظاهرُ؟!"

ولم يَرُد حسين على تساؤلِ وجيه ، بل قالَ في صوتٍ مرتفعٍ مسموعٍ ، وفي نبرةٍ واضحةٍ رنَّانةٍ:

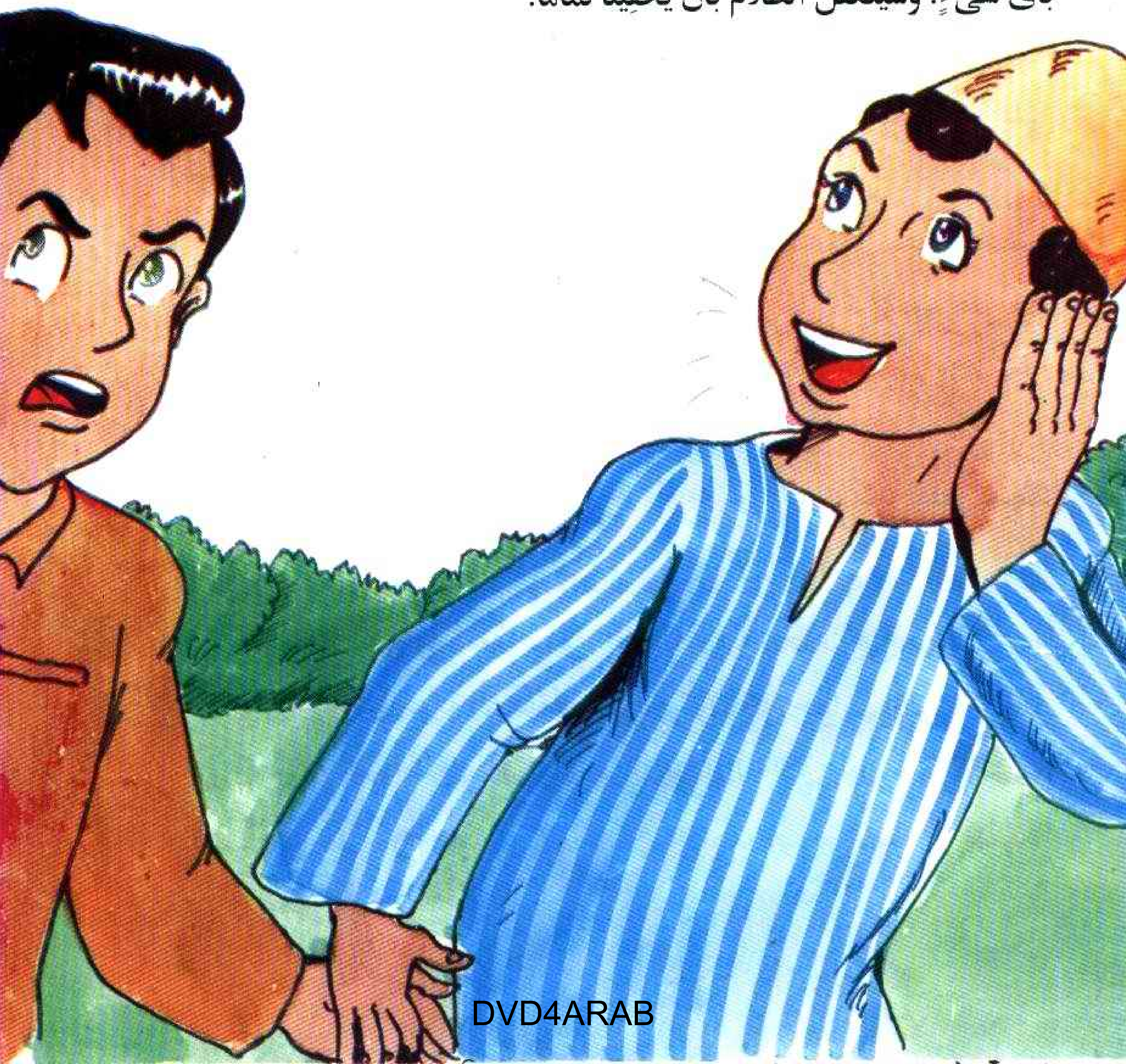
"الذئابُ تقطعُ الطريقَ .. هيا نعودُ .. يجبُ أن نعودَ بسرعةٍ إلى شارونة."

وأمسكَ حسين بيدِ وجيه ، وجذبَهُ معَهُ ، وغيَّرا اتجاهَهُما ، وسارا بسرعةٍ في طريقِ العودةِ.

وحاولَ وجيه أن يتكلَّمَ ، فأسكَتَهُ حسين ، إلى أن قطَعا مسافةً كبيرةً. عندئذٍ تَوقَّف حسين ، وأوقفَ صديقَهُ معَهُ.

ومالَ حسين على أذنِ وجيه ، وهمسَ:

"سنعودُ الآنَ ونتَّجهُ كما كنَّا إلى قريةِ الشيخِ فضل. لكن احرِصْ ألا يصدرَ عنكَ أيُّ صوتٍ .. لا كلمة ، ولا همسة .. واحرصْ ألا تصطدمَ قدمُكَ بأيِّ شيءٍ. وسيتكفَّلُ الظلامُ بأن يُخفِيَنا تمامًا."



وحاولَ وجيه أن يستفسرَ عن معنى تصرُّفاتِ حسين ، لكن "حسين" أسكتَهُ وهو يقولُ: "ربما أتوهَّمُ أشياءَ ، وربما أكونُ على حقٍّ فيما أظنُّ. حاولْ أن تنفِّذَ ما طلبْتُهُ منك ، وسنتحقَّقُ سريعًا من النتيجةِ."

وفي هدوءٍ شديدٍ ، عادَ الصديقانِ يتجهانِ إلى قريةِ الشيخِ فضل ، يُخفيهما الحرصُ والخوفُ والظلامُ.

وعادا يخترقانِ منطقةَ الطريقِ المجاورة للمقابر ، من غيرِ أن يسمعا عواءَ الذئابِ مرةً أخرى ، ولا صوتَ الضحكِ الذى يحاولُ أن يقلِّدَ عواءَ الضباعِ!!

وفي الصفِّ الأماميِّ من المقابرِ ، وعلى حافةِ الطريقِ ، ظهرَتِ الكتلةُ السوداءُ للمبنى المُقامِ فوقَ مقبرةِ "الشيخ درويش".

كان المبنى غرفةً صغيرةً ، لها بابٌ واحدٌ ، ونافذةٌ واحدةٌ مُغلَقةٌ على الدوامِ.

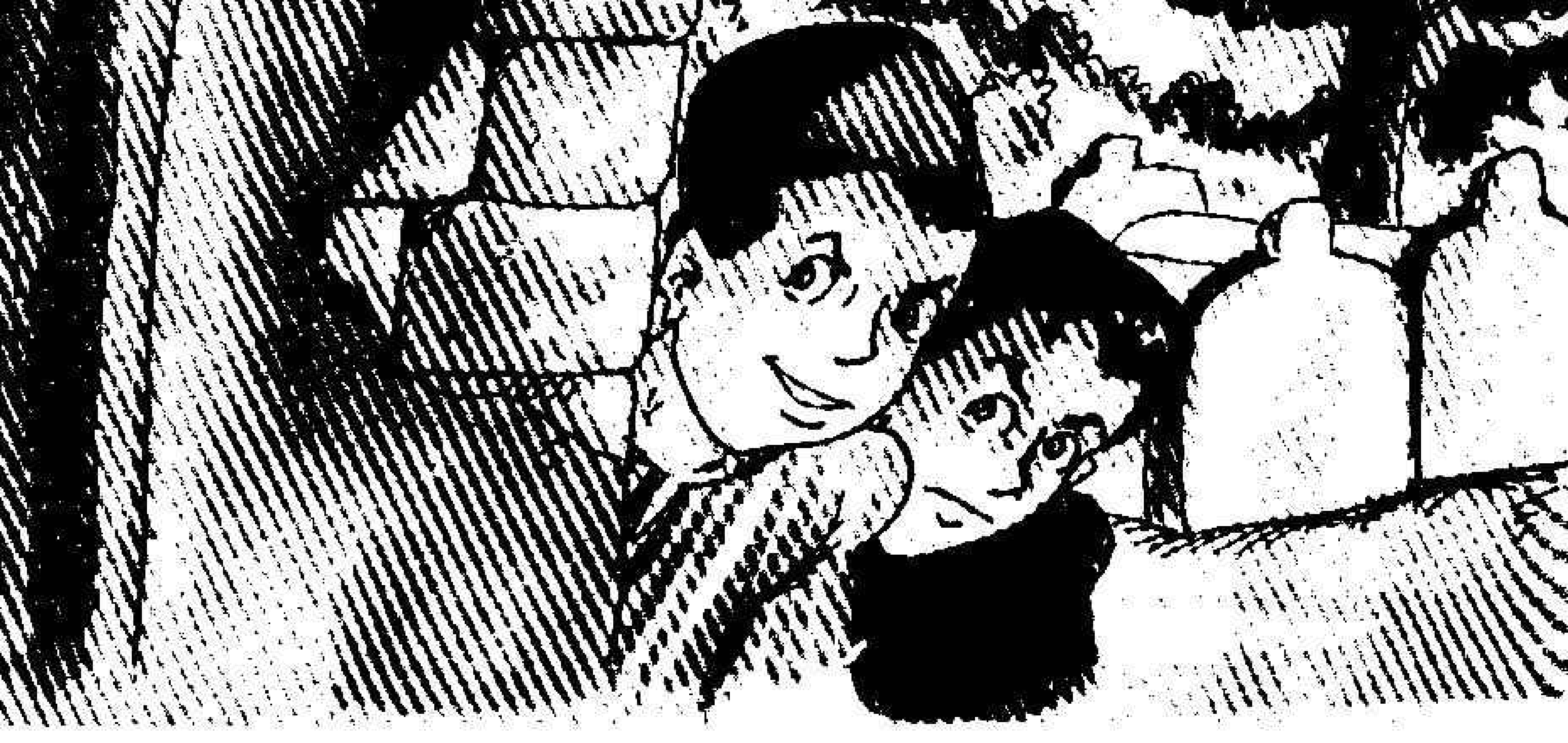
ورغمَ الرهبةِ التى أحسَّ بها الصديقانِ وهما يتسلَّلانِ بجوار منطقةِ المقابرِ ، التى سمعا أن "العفاريتَ" اعتادَتْ أن تقابلَ أهلَ القريةِ عندَها ، فقد استمرَّا في سَيْرِهما ، يشجِّعُهما على التقدُّمِ توقُّفُ أصواتِ الذئابِ والضباعِ ، وقد حرصَ الصديقانِ ألا يصدُرَ عنهما أيُّ صوتٍ.

وفجأةً أمسكَ حسين بذراعِ وجيه ، وأوقفَهُ عن السيرِ ، وقد جمعَ بينهما هذه المرةَ خوفٌ حقيقيٌّ.

لقد سمعَ وجيه ما سمعَهُ حسين: أصواتًا آدميَّةً تتحدَّثُ في همسٍ!!

وشلَّ الخوفُ حركةَ الصديقَيْنِ ، وقد تركَّزَتْ كلُّ حواسِّهما في آذانِهما.

كانَتِ الأصواتُ قادمةً من ناحيةِ الغرفةِ المُقامةِ فوقَ مقبرةِ الشيخِ درويش!!



وتحتَ تأثيرِ الخوفِ الشديدِ ، ركعَ حسين على يدَيْـهِ وركبتَيْـهِ ، وجـذَبَ معه "وجيه" إلى الأرضِ.

وبعدَ دقـائقَ ، هدأ خوفُهما قليلاً ، فبدأ الصديقانِ يزحفانِ ، للاختباءِ بجوار المقبرةِ . وفي أسفلِ الجدار ، تحـتَ نـافذةِ غرفـةِ المقـبرةِ ، التصـقَ الصديقانِ بالحائطِ ، بحيثُ يستحيلُ أن يميِّزَ إنسانٌ شكلَهُما في الظلامِ.

ووصلَتِ الأصواتُ إلى سمعِهما ، فحـاولا متابعتَـها فـي حـرصٍ ، رغـمَ الخوفِ الذي كانَ يمنعُهما من إصدار أيِّ صوتٍ.

كانَ واضحًا أن هناك شخصَيْنِ داخلَ غرفـةِ المقبرةِ ، يتحدَّثـانِ بصـوتٍ مُنخفِضٍ.

كان أحدُهما يقولُ للآخرِ: "لقد ملأهما الخوفُ ، فأسرعا بالهروبِ."

أجابَ الآخرُ: "كانَ يجبُ ألا يقابلَنا أحدٌ هذه الليلةَ ، ونحنُ نحملُ كلَّ هذا الذهبِ."

وضغطَ حسين على ذراعِ وجيه ، وأجابَهُ وجيه بضغطةٍ مُشـابِهةٍ: إذْنَ فهذِهِ هي عفاريتُ طريقِ الشيخِ فضل!! هذه العفاريتُ التي لم تظهْر إلا خلالَ الأسابيعِ الأخيرةِ ، مع بدايةِ وقوعِ السرقاتِ في القريةِ!

وتَناهَى إلى سمع الصديقَيْنِ صوتُ اللصَّيْنِ مرةً ثانيةً. كانَ الصوتُ الأولُ يقولُ: "لن يتصوَّرَ أهلُ القريةِ ، أننا يُمكِنُ أن نعودَ إليهم في مُغامَرةٍ جديدةٍ في نفسِ هذه الليلةِ .. سيتخلَّى عنهم الحَذَرُ تمامًا بقيَّةَ هذا الليلِ."

وعادَ حسين يضغطُ على ذراعِ وجيه ، وقد سرَتْ في جسمِهِ رجفةٌ.

قالَ الصوتُ الثاني: "هل عايَنْتَ دكانَ البقالِ؟"

قالَ الصوتُ الأولُ: "عاينتُ كلَّ شيءٍ .. لقد سهرَ أهلُ القريةِ الليلةَ كثيرًا ، وقُبَيْلَ الفجرِ يستغرقونَ في نومٍ ثقيلٍ ، فلن ينتبهَ إلينا أحدٌ. لكنْ يجبُ أن نُخْفِيَ أولاً ما حصلْنا عليه من ذهبٍ ، قبلَ أن نعودَ إلى القريةِ."

أجابَ الصوتُ الثاني: "وهل تظنُّني أنتظرُ نصيحتَكَ؟! لقد أخفَيْتُهُ. إن مقبرةَ الشيخِ درويش هذه مكانٌ ممتازٌ لإخفاءِ كلِّ شيءٍ. لكنْ يبدو أن حصيلةَ الليلةِ قد أنسَتْكَ عشاءَنا".

قالَ الصوتُ الأولُ: "سأتسلَّلُ إلى شارونة لأسمعَ الأخبارَ ، وأحضِرَ الطعامَ."

وتأهَّبَ اللصُّ للخروجِ من مبنى المقبرةِ ، فأسرعَ الصديقانِ يتكوَّمانِ على الأرضِ ، وقد التصقا تمامًا بالجدار ، وأصبحا كأنهما قطعةٌ من طينِ الأرضِ الأسودِ.

* * *

عندما تأكَّدَ الصديقانِ من ابتعادِ اللصِّ ، عادَ حسين يسحبُ ذراعَ صديقِهِ "وجيه" ، ويتَّجهانِ في نفسِ الهدوءِ لإكمالِ طريقِهما إلى الشيخِ فضل.

وبعدَ أن ابتعدا مسافةً كافيةً ، همسَ وجيه:

"لم أتعرَّفْ عليهما من صوتِهما."



قالَ حسين: "وكان الظلامُ أشدَّ من أن يسمحَ لي بتبيُّنِ ملامحِ مَنْ خرجَ. لكننا لن نتركَهما يسرقانِ دكانَ البقالةِ .. وسنعرفُ عندئذٍ منْ هو السارقُ!"

قالَ وجيه: "لكننا الآنَ في طريقِنا إلى الشيخِ فضل .. كيفَ سنمنعُ السرقةَ التي ستحدثُ بعدَ ساعاتٍ في شارونة؟"

قالَ حسين: "سنعودُ إلى قريتِنا قبلَ الفجرِ بوقتٍ طويلٍ. لكنْ لابد أن نُسرِعَ الآنَ إلى قريةِ الشيخِ فضل ، لإنقاذِ والدتي."

* * *

وصلَ الصديقانِ إلى قريةَ الشيخِ فضل قبلَ مُنتصَفِ الليلِ، فوجداها قد نامَتْ. وانطلقا من طريقٍ إلى طريقٍ، فلم يقابلا شخصًا واحدًا يسألانِهِ عن بيتِ الطبيبِ.

وأخيرًا شاهدا بابًا مفتوحًا ، يُشِعُّ منه الضوءُ ، وتبيّنا أنه مَخبزُ القريةِ.

ودخلَ الصديقانِ ، فوجدا عاملَيْنِ يشتغلانِ في عجنِ الدقيقِ.

قالَ وجيه:"السلامُ عليكم.."





صاحَ أحدُ العاملَيْنِ: "لا يوجَدُ خبزٌ الآنَ .. بعدَ ساعتَيْنِ .."

قالَ وجيه: "لقد أتيْنا الآنَ من شارونة .. جِئْنا نبحثُ عن بيتِ الدكتور زايد."

صاحَ العاملُ نفسُهُ في دهشةٍ شديدةٍ:"مِنْ..شارونة؟! الآنَ؟! وحدكما؟! حمدًا للهِ على سلامتِكما .. خيرٌ إن شاءَ اللهُ."

أجابَ حسين: "والدتي



مريضةٌ جـدًّا ، ولابـد أن يراهـا الطبيبُ فى أسرعِ وقتٍ."

التفـتَ العـاملُ إلى زميلِـهِ وقـالَ: "هـل يُمكِـنُ أن أتركَـكَ لحظـاتٍ ، لأصـلَ إلى بيـتِ الدكتور؟"

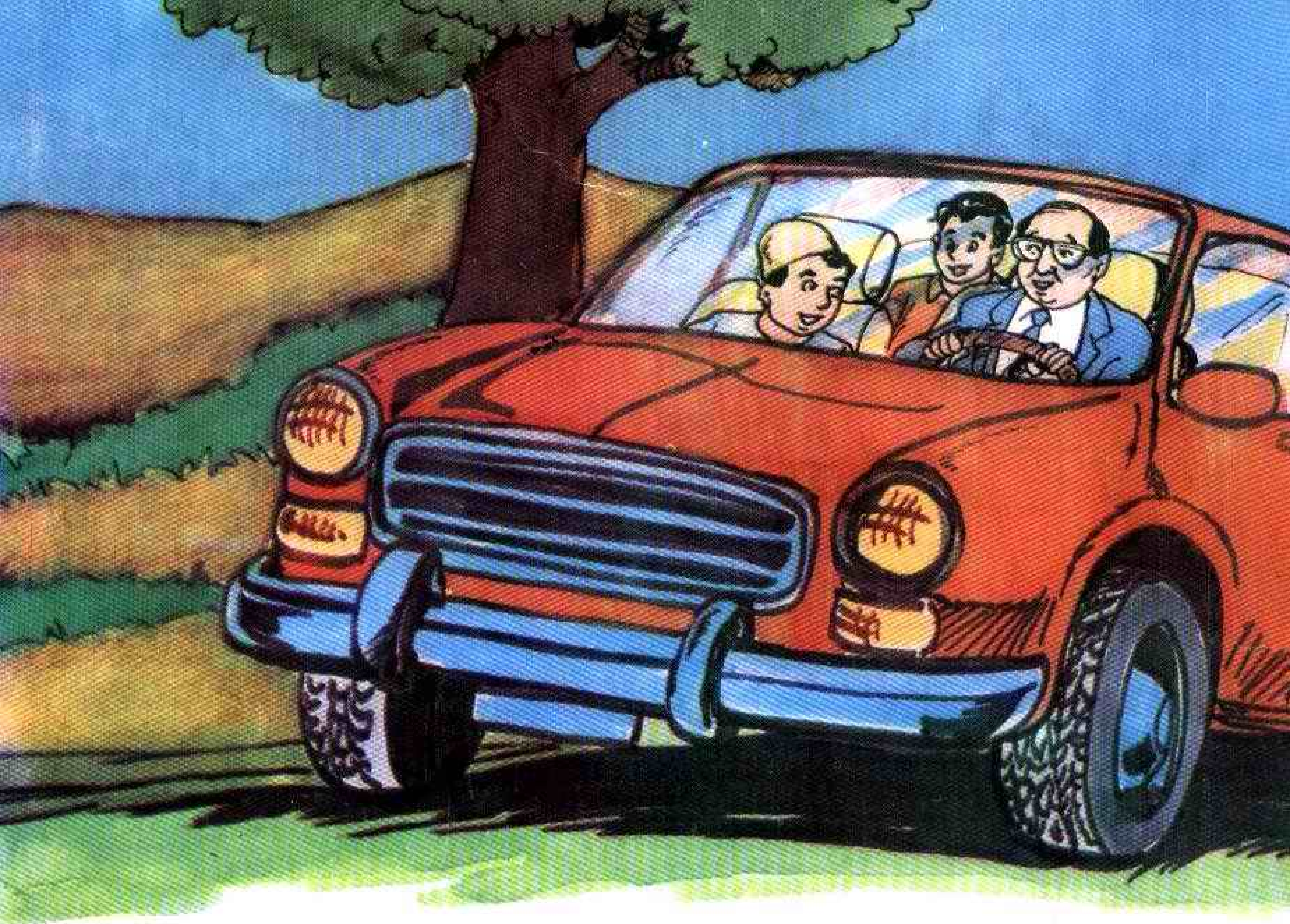
أجابَ الآخـرُ فى ترحيبٍ: "لو كانَ هناكَ غيرُنـا ، لذهبْتُ أنا أيضًا معكم."

* * *

وقابلَ الثلاثةُ الطبيبَ وهـو يدخلُ بيتَهُ ، بعد عودتِهِ من عمليةِ الولادةِ ، التـى اضطرَّتْهُ أن يبيتَ تلكَ الليلةَ فى قريةِ الشيخِ فضل.

وأدركَ الطبيـبُ ممـا قالَـهُ حسين ، مدى سوءِ حالـةِ والدتِـهِ ، فاستأذنَ مـن الصبيَّيْنِ لحظـاتٍ ، أخذَ خلالَـها ما سيحتاجُ إليه مـن أدواتٍ ودواءٍ ، ثم أركبَهُما سيارتَهُ ، وانطلقَ بهما فـى الطريـقِ الضيـقِ إلى شارونة.

* * *



كانَتِ السيارةُ تسيرُ ببطءٍ ، وأضواؤها الكاشفةُ تبدِّدُ الظلامَ.

وأخيرًا وصلَتْ إلى شارونة.

وفى بيتِ حسين ، بدأ الطبيبُ يُجرِى للأمِّ الإسعافاتِ اللازمةَ ، ويُطمئِنُها على أن كلَّ شيءٍ سيكونُ على ما يُرامُ. قالَ: "سأبقَى بجانبِكِ إلى أن يزولَ الخطرُ."

وهمسَ وجيه لحسين: "هيا نذهبُ نحن إلى بيتِ العمدةِ."

وفى هدوءٍ تَسلَّلَ الصديقانِ خلالَ دروبِ القريةِ وطُرُقِها ، حتى وصلا إلى بيتِ العمدةِ.

* * *

كانَتِ الأضواءُ قد أطفِئَتْ فى المضيفةِ ، وسادَ السكونُ البيتَ الواسعَ الكبيرَ ، بعد أن تفرَّقَ أهلُ القريةِ ، وعادَ كلٌّ واحدٍ إلى بيتِهِ.

وما إنِ اقتربَ الصبيَّانِ ، حتى صاحَ الخفيرُ الجالسُ أمامَ البيتِ ، وهو يهبُّ واقفًا: "منْ هناك؟"

واقتربَ حسين في هدوءٍ ، وقالَ في صوتٍ منخفضٍ: "نُريدُ العمدةَ في أمرٍ مهمٍّ."

رفعَ الخفيرُ صوتَهُ وقالَ: "العمدة نفسُهُ ؟! قلْ لي ماذا تُريدُ من حضرة العمدةِ ؟"

قالَ حسين بصوتٍ خافتٍ: "لا نستطيعُ أن نقولَ ما عندنا إلا للعمدةِ نفسِهِ."

قالَ الخفيرُ بصوتٍ مُرتفعٍ غاضبٍ: "هل هناك أسرارٌ لا يعرفُها إلا أمثالُكم من الصغار ؟! هيا اذهبْ أنت وهو!"

وتأهَّبَ وجيه وحسين للردِّ على الخفيرِ الجافِّ الطبعِ ، عندما ظهرَ ضوءٌ في نافذةِ "المَضْيَفَةِ" ، وأطلَّ العمدةُ نفسُهُ وهو يسألُ غاضبًا:

"ما هذه الضَّجَّةُ يا شيخَ الخفرِ؟! لو كنتم تهتمُّونَ بشغلِكم ، ويخافُ منكم اللصوصُ ، لما طارَ النومُ من عيني. والآنَ ، لماذا ارتفعَ صوتُكَ الغليظُ في مُنتصَفِ الليلِ؟"

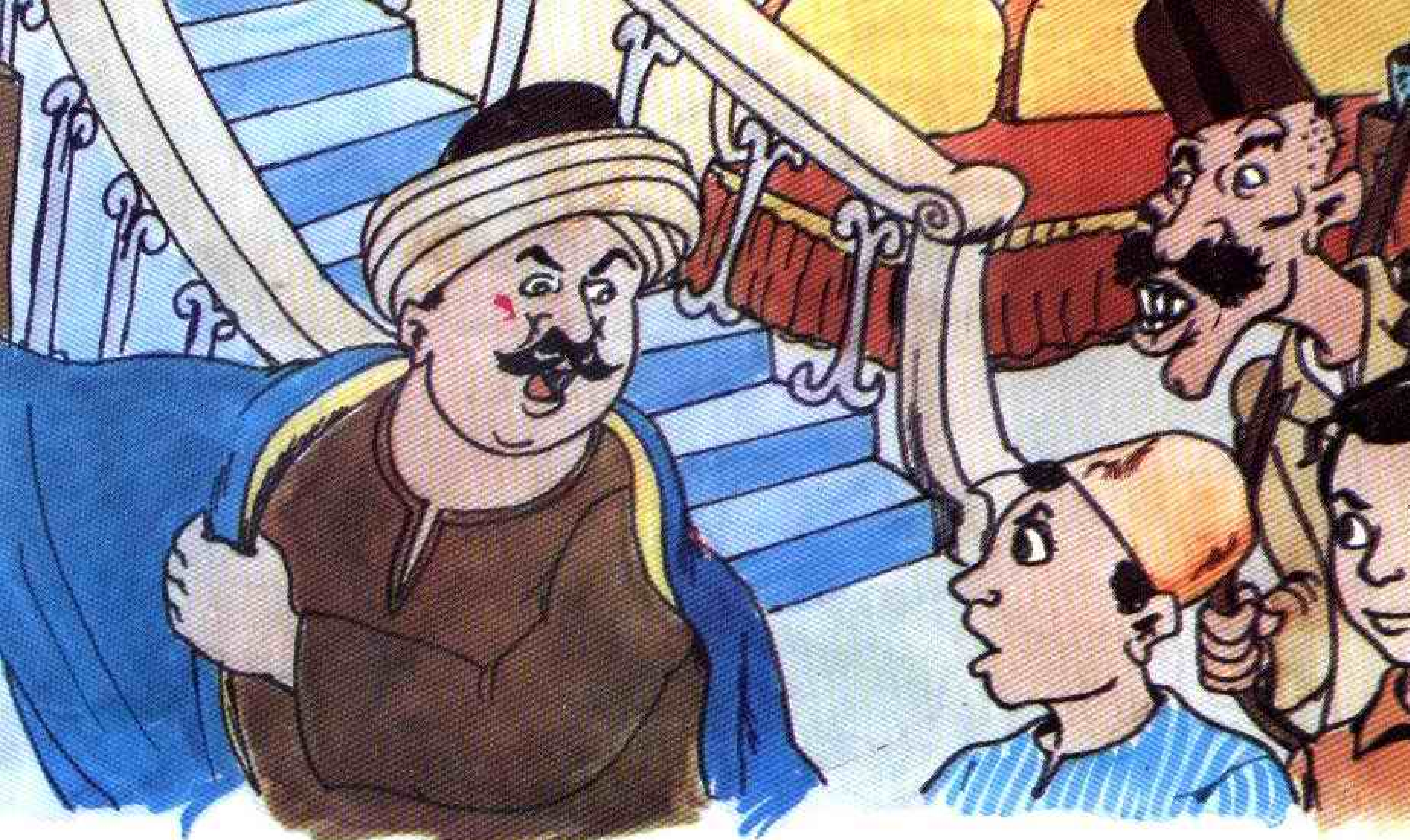
قالَ الخفيرُ: "هذان الطفلانِ يقولانِ إن معهما أسرارًا لابد من حكايتِها لك ، فطلبْتُ منهما الانصرافَ بغيرِ إزعاجٍ."

- قالَ حسين، وهو يحاولُ أن يخفضَ من صوتِهِ: "الأمر مهمٌّ جدًّا يا حضرةَ العمدةِ."

وأضافَ وجيه: الأمرُ مهمٌّ جدًّا .. لابد أن تعرفَهُ الآنَ يا حضرةَ العمدةِ."

ورغمَ أن العمدةَ كانَ في حاجةٍ شديدةٍ إلى النومِ ، بعدَ كلِّ الضجَّةِ





التى عانَى منها بسببِ سرقةِ الذهبِ والحلىِّ ، من بيتِ صاحبِ ماكينةِ الرىِّ ، فقد أحسَّ أن عند الصبيَّيْنِ شيئًا مُهِمًّا حقًّا ، فقالَ للخفيرِ:

"اتركْهما يدخلان يا مخلوف."

هنا همسَ وجيه للخفيرِ: "ألم أقلْ لك إن هذه أمورُ كبار ، لا تُناقَشْ إلا مع حضرة العمدةِ شخصيًّا؟!!"

وما إنْ دخلَ الصَّبيَّانِ ، حتى اقتربَ حسين من العمدةِ ، وهمسَ فى انفعالٍ: "عرفْنا سرَّ اللصوصِ!"

سألَ العمدةُ فى دهشةٍ: "أىُّ لصوصٍ؟!"

أجابَ حسين: "اللصوصُ الذين سرقوا بيوتَ القريةِ عدةَ مراتٍ."

وفتحَ العمدةُ عينيه فى دهشةٍ شديدةٍ ، وعادَ يسألُ: "وأىُّ سرٍّ آخرَ عندهم؟"

أجابَ حسين: "اللصانِ أنفسُهما سيسرقانِ فى هذه الليلةِ ، قبلَ الفجرِ ، دكانَ بقالةِ المُقدِّسِ برسوم."

هنا تنبَّهَتْ كلُّ حواسِّ العمدةِ ، وصاحَ في دهشةٍ: "ومَنْ هما؟! ومنْ أخبركما بهذا؟!"

قالَ حسين :"لم نعرفْ شخصيَّتَهما ، لكنني سمعْتُهما أنا ووجيه ، وهما يختفيانِ في مقبرةِ الشيخِ درويش."

صاحَ العمدةُ في استنكارٍ: "وما الذي ذهبَ بكما إلى مقبرةِ الشيخِ درويش في هذه الساعةِ من الليلِ؟!! ألم يحدثْ لكما شيءٌ ؟!"

قالَ حسين: "بل ذهبْنا إلى الشيخِ فضل ، وأحضَرْنا معنا الدكتور ليعالجَ والدتي."

وقالَ وجيه: "وإذا كنتم ستقومونَ بإعدادِ كمينٍ من الخفراءِ بجوارِ الدكانِ يا حضرةَ العمدةِ ، فلا يجبُ أن يُحِسَّ أحدٌ بذلك، لأن أحدَ اللصَّيْنِ في القريةِ الآنَ ، يشتري طعامًا."

وازدادَتْ دهشةُ العمدةِ وتعجُّبُه: هل يصدِّقُ حكاياتِ هؤلاء الصغار؟ لكن تردُّدَهُ سرعانَ ما زالَ ، ورفعَ صوتَهُ يُنادِي الخفيرَ في حزمٍ: "يا مخلوف .. استدْعِ ثلاثةً من زملائِكَ ، وتعالَوْا هنا."

* * *



واستجابةً لما أشارَ به الصبيَّانِ ، ولكي لا يُثيرَ العمدةُ انتباهَ اللصِّ الذي لم يتعرَّفْ حتى الآن على شخصيتِهِ ، فإنه بدلاً من أن يُرسِلَ أحدَ الخُفَراءِ ، أرسلَ برسالةٍ إلى البقالِ لتحذيرِهِ ، وحرصَ حسين ألا يراهُ أحدٌ وهو يتسلَّلُ إلى بيتِ البقالِ برسوم ، الذى خصَّصَ الغرفةَ الأماميةَ من بيتِهِ لتكونَ دكانًا للبقالةِ.

ولأن الوقتَ كانَ مُتأخِّرًا ، فإن بابَ البقالةِ كانَ مُغلَقًا ، لكن صاحبَها كانَ لا يزالُ مُستيقِظًا ، وقد انهمكَ فى إعدادِ "قراطيس" من الورقِ ، لتعبئةِ الشاىِ والسكرِ ، اللذين يبيعُهما فى عبواتٍ صغيرةٍ لأهلِ البلدةِ.

وتَسلَّلَ حسين حتى أبلغَ الرسالةَ إلى البقالِ ، ثم انسحبَ بسرعةٍ.

أما الخُفَراءُ ، فقد انطلقوا بعدَ قليلٍ فى طرقاتِ القريةِ ، كأنهم يقومونَ بجولاتِهم المُعتادةِ . ثم بدءوا ، واحدًا بعدَ الآخرِ ، يتسلَّلونَ فى هدوءٍ ، إلى بيتِ البقالِ ودكانِهِ . وما إنْ يصلْ أحدُهم ، حتى يفتحَ له برسوم البقالُ بابَ بيتِهِ ، فقد كانَ ينتظرُهم بعد أنْ أطفأ كلَّ الأنوار . وصعدَ خفيران إلى السطحِ ، حيث اختبأ كلُّ واحدٍ منهما فى هدوءٍ خلفَ أحدِ الأوعيةِ الضخمةِ العاليةِ المصنوعةِ من الطينِ ، المُستخدَمَةِ لخزنِ الحبوبِ ، والتى يسمِّيها أهلُ الريفِ "صوامع الغلة". وكَمَنَ خفراءُ آخرونَ، مُتخفِّينَ بجوار أبوابِ بعضِ البيوتِ.

وقبلَ الفجرِ ، لم يذهب اللصَّانِ مباشرةً إلى الدكانِ ، بل دخلا بيتًا مهجورًا على مبعدةِ بضعةِ بيوتٍ من بيتِ البقالِ ، ثم تَسلَّلا بخفةٍ من فوقِ أسطحِ البيوتِ ، حتى وصلا إلى سقفِ الدكانِ. ووقفَ أحدُ اللصَّيْنَ خلفَ سور السطحِ يراقبُ الطريقَ ، فى حين بدأ الآخرُ يثقبُ سقفَ الدكانِ.

وفى الوقتِ الذى ظنَّ فيه اللصَّان أنهما يوشكانِ على الفوز بغنيمةٍ

ثمينةٍ جديدةٍ ، استيقظَتِ القريةُ كلُّها على صوتِ طلقاتِ الرصاصِ ، فأضاءَت البيوتُ مصابيحَها ، وفتحَتْ أبوابَها.

وأدركَ اللصَّانِ أن الخفراءَ يحاصرونَهما فوقَ السطحِ ، فقفزَ أحدُهما فى جرأةٍ شديدةٍ إلى الطريقِ ، لكنه وجدَ نفسَهُ يسقطُ وسطَ بقيةِ الخفراءِ وبعضِ رجالِ القريةِ ، الذين كانوا قد تَجمَّعوا أمامَ دكانِ البقالِ.

ورغمَ المقاومةِ العنيفةِ التى أبداها أحدُ اللصَّيْنِ ، فإن ضربةً شديدةً على ساقَيْهِ ، من عصاً غليظةٍ لأحدِ الخفراءِ ، أوقعَتْهُ على الأرضِ.

وسرعانَ ما كانَتِ الحبالُ تقيِّدُ اللصَّيْنِ ، وقد تكاثرَتْ عليهما أيدى الأعدادِ الكبيرةِ من الخفراءِ وأهلِ البلدِ ، الذين تَزاحَموا حولَهما.

* * *



تأمَّلَ شيخُ الخفراءِ وجهَ أحدِ اللصَّيْنِ ، وقالَ في ثقةٍ: "متى عدتَ إلى هنا يا "مدور" ؟ كنَّا قد استرَحْنا من جرائمِكَ عدَّةَ سنواتٍ. "

ثم التفتَ إلى الثاني ، وكان أصغرَ سنًّا ، وقالَ له في احتقار:

"وأنتَ أيضًا يا شمروخ ؟! أنتَ الذي لم يظهرْ شاربُكَ إلا أخيرًا ، تجري وراءَ لصٍّ مثلِ مدور!! سوف أعرِّفُكما مَنْ هو شيخُ الخفرِ .. أنا لا يُفلِتُ من بين يدَيَّ أيُّ لصٍّ!!"

* * *

وفي بيتِ العمدةِ ، التفَّ كلُّ أهلِ القريةِ حولَ حسين ووجيه ، يسمعانِ منهما كيفَ تَغلَّبا على عفاريتِ طريقِ الشيخِ فضل!!

وفي نفسِ الوقتِ ، كانَ العمدةُ يحقِّقُ مع اللصَّيْنِ ، يحاولُ أن يعرفَ منهما أين أخفيا مصوغاتِ الحاجِّ صاحبِ ماكينةِ الريِّ.

لكن اللصَّيْنِ أصرَّا على إنكار سرقتِها ، وأنهما لا يعرفانِ شيئًا عنها.

هنا استدعَى العمدةُ "حسين" ، وقالَ له: "إنهما يُنكِرانِ معرفتَهما أيَّ شيءٍ عن مصوغاتِ الحاجِّ .. هل يُعقَلُ أن تكونَ كلُّ هذه الثروةِ قد ضاعَتْ نهائيًّا؟!"

قالَ حسين: "سمعتهما يقولانِ إنهما أخفياها في مقبرةِ الشيخِ درويش ، لكنهما لم يذكرا مكانَها بالضبطِ."

صاحَ الحاجُّ سالم ، صاحبُ ماكينةِ الريِّ ، والذهبِ المسروقِ :"نذهبُ ونفتِّشُ في المقبرةِ."

* * *

ومع أضواءِ الفجرِ ، خرجَتِ القريةُ كلُّها خلفَ حسين ، مُتَّجِهةً إلى مقبرةِ

الشيخِ درويش.

وأخذَ الرجالُ يفتِّشونَ كلَّ ركنٍ فيها ، لكنهم لم يعثروا على شيءٍ.

وعادوا يسألون "حسين" و "وجيه" عن حقيقةِ ما سمعا من اللصَّيْنِ.

ووقفَ حسين حائرًا ، ثم وقعَ بصرُهُ على سطحِ غرفـةِ المقبرةِ ، وطـرأ لـه خاطرٌ، فاندفعَ ، وتسلَّقَ نافذةَ المقبرةِ ، وقفزَ منها إلى ما فوقَ السطحِ.

ولم يستغرقْ حسين وقتًا طويلاً ، قبلَ أن يفاجئَ الجميعَ ، وقد وقـفَ على حافةِ سطحِ غرفةِ المقبرةِ ، وهو يُمسِكُ بين يدَيْهِ قِطَعًا من الحلِـيِّ البراقةِ ويصيحُ: "وجدْتُها .. كلُّ الذهبِ هنا.."



كانَتْ قِطَعٌ مِن الأحجار الثقيلةِ قد استقرَّتْ فوقَ أحدِ الأكياسِ الفارغةِ القديمةِ، المُلقاةِ على سطحِ المقبرةِ. وما إنْ أزاحَ حسين تلك الأحجارَ، حتى انكشفَ ما تحتَ الكيسِ، وظهرَتْ تحتَهُ الأساورُ الذهبيةُ، والخلخالُ الفضِّيُّ، والأقراطُ، والسلاسلُ الذهبيةُ، وما بها من جنيهاتٍ من ذهبٍ.

وعادَ حسين يصيحُ: "ذهبٌ .. أساورُ وسلاسلُ من ذهبٍ، وخلخالٌ من فضةٍ!! أحمدُكَ يا ربِّ!!"

* * *

في تلك اللحظةِ وصلَ مروان، كاتبُ الجمعيةِ الزراعيةِ ووالدُ حسين، وعلاماتُ الفخرِ بابنِهِ تملأُ وجهَهُ.

وما إنْ رأى "حسين"، حتى احتضنَهُ وهو يهتفُ: "مُبارَكٌ يا حسين.. جاءَ لك أخٌ، وجاءَ معه لكلِّ البلدِ، الأمانُ والاطمئنانُ."

صاحَ حسين: "وصحَّةُ والدتي؟"

أجابَ الأبُ، وهو يعاودُ احتضانَ ابنِهِ بفخرٍ:

"الحمدُ للهِ .. صحتُها الآنَ تحسَّنَتْ .. لقد جاءَتْ لنا بولـدٍ ، إن شاءَ اللهُ يكونُ في مثلِ شجاعتِكَ ورجولتِكَ."

وتلفَّتَ حسين يبحثُ عن مسعود ، زميلِهِ كبيرِ السنِّ والجسمِ ، فلـم يـرَهُ ، فهمسَ لنفسِهِ:



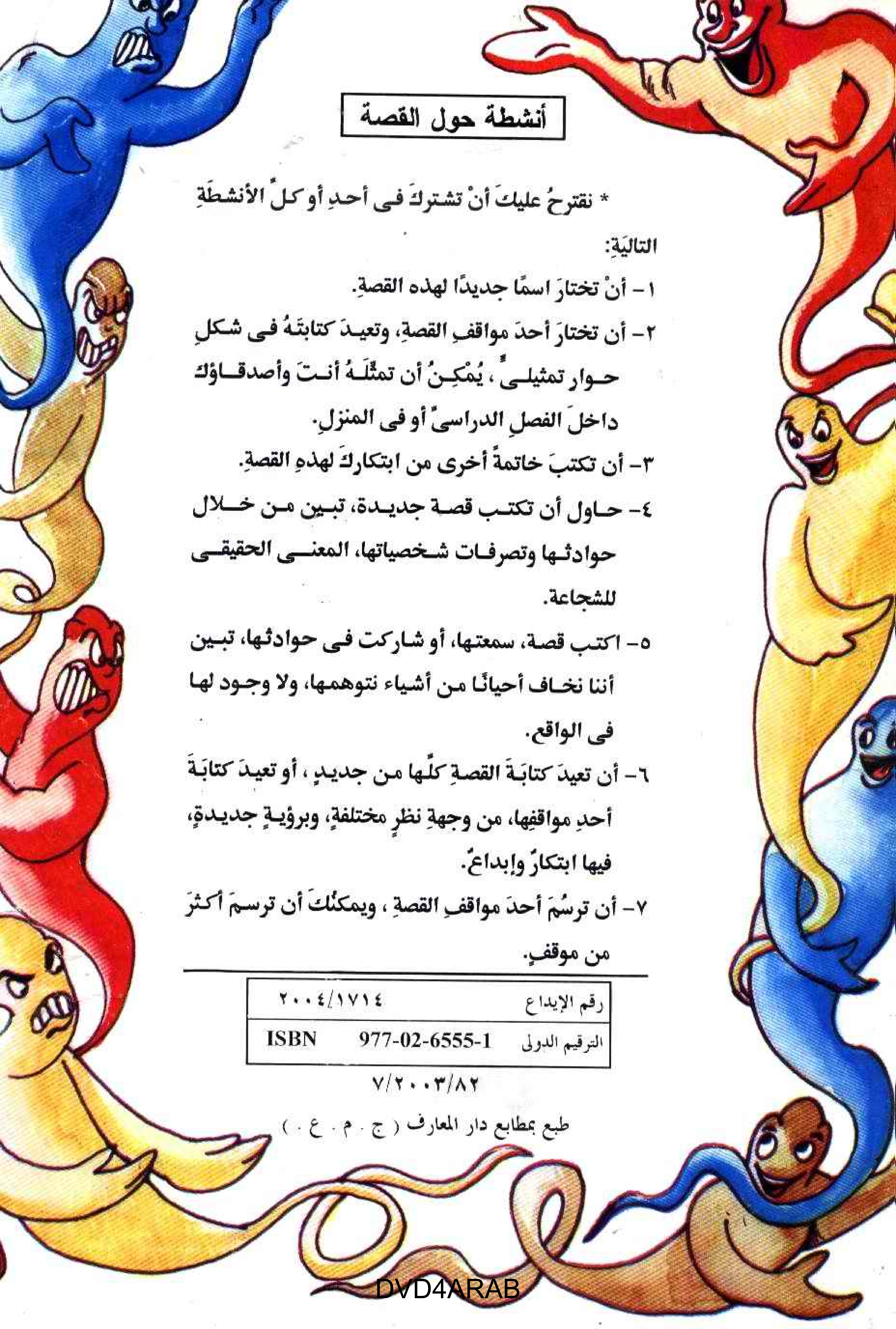
"لم أكُـنْ أعـرفُ أن اليـومَ الـذى أثبـتُ لهـم فيـه معنـى الشجاعةِ الحقيقيةِ، سيأتى بمثلِ هذه السرعةِ!"

* * *

أما مسعود ، فقد التفتَ إلى بقيةِ الزُّملاءِ وقالَ: "كلُّ هذا يفعلُهُ حسين ، الذى كنَّا نظنُّه جبانًا؟!"

هنا همسَ لـه زميـل آخرُ: "أنت تسرقُ الفاكهةَ من الحدائقِ، وهويذهـبُ إلى الشيخِ فضل ليلاً رغـمَ العفـاريتِ، ويقبـضُ علـى لصـوصِ القريـةِ..كـلُّ واحـدٍ لـه تخصُّصٌ!!"

وارتفعَتْ ضحكـاتُ الأولادِ ساخرةً من مسعود، فألقَى برتقالةً كانَتْ في يدِهِ، وأسرعَ يبتعدُ في ارتباكٍ..



أنشطة حول القصة

* نقترحُ عليكَ أنْ تشتركَ فى أحدِ أو كلِّ الأنشطَةِ التاليَةِ:

١- أنْ تختارَ اسمًا جديدًا لهذه القصةِ.

٢- أن تختارَ أحدَ مواقفِ القصةِ، وتعيدَ كتابتَهُ فى شكلِ حوارٍ تمثيلىٍّ، يُمْكِنُ أن تمثّلَهُ أنتَ وأصدقاؤكَ داخلَ الفصلِ الدراسىِّ أو فى المنزلِ.

٣- أن تكتبَ خاتمةً أخرى من ابتكاركَ لهذهِ القصةِ.

٤- حاول أن تكتب قصة جديدة، تبين من خلال حوادثها وتصرفات شخصياتها، المعنى الحقيقى للشجاعة.

٥- اكتب قصة، سمعتها، أو شاركت فى حوادثها، تبين أننا نخاف أحيانًا من أشياء نتوهمها، ولا وجود لها فى الواقع.

٦- أن تعيدَ كتابَةَ القصةِ كلِّها من جديدٍ، أو تعيدَ كتابَةَ أحدِ مواقفِها، من وجهةِ نظرٍ مختلفةٍ، وبرؤيةٍ جديدةٍ، فيها ابتكارٌ وإبداعٌ.

٧- أن ترسُمَ أحدَ مواقفِ القصةِ، ويمكنُكَ أن ترسمَ أكثرَ من موقفٍ.

رقم الإيداع	٢٠٠٤/١٧١٤
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6555-1

٧/٢٠٠٣/٨٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)